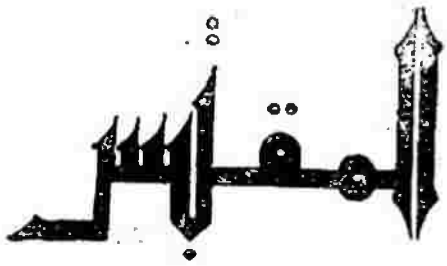

غرة جمادى الاولى سنة ١٣٢٤

صدور المشارقة والمغاربة

القاضي الفاضل

ولد سنة ٥٢٩ وتوفي سنة ٥٩٦

هذا هو الرجل الذي قال فيه عبد اللطيف البغدادي أحد فلاسفة الاسلام : دخلنا عليه فرأيت شيخاً ضئيلا كله رأس وقلب وهو يكتب ويملي على اثنين ووجهه وشفتاه تلعب الوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام وكأنه يكتب بجملة أعضائه ... وسألني مسائل كثيرة ومع هذا فلا يقطع الكتابة والاملاء

هو عبد الرحيم بن علي البيساني نسبة لبيسان احدى بلاد فلسطين الملقب بالقاضي الفاضل . قيل ان سبب تعلمه الانشاء ماروي له من انه قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة العلوية غضاً طرياً وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا ،

وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين اذا نشأ له ولد وشدا شيئاً من علم الأدب أحضره الى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع أشياء من علم الادب . قال: فارسلني والدي وكان اذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان الى الديار المصرية في أيام الحافظ وهو أحد خلفائها وأمرني بالمصير الى ديوان المكاتبات وكان الذي ترأس به في تلك الايام رجل يقال له ابن الخلال . فلما حضرت الى الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبتي رحب بي وسهل . ثم قال لي: ماالذي أعددت لفن الكتابة من الآلات فقلت ليس عندي شيء سوى اني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة . فقال: في هذا بلاغ . ثم أمرني بملازمته فلما ترددت اليه ، وتدربت بين يديه أمرني: بعد ذلك ان أحل شعر الحماسة فحللته من أوله الى آخره ثم أمرني ان أحله مرة ثانية فحللته اه .

وصف العماد الكاتب من كتاب الدولة الصلاحية المترجم به على طريقته في الكتابة فقال : رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة . والفضل الذي ماسمع في الاوائل ، ممن لو عاش في زمانه لتملق بغباره ، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الافكار ، ويفترع الابكار ، ويطلع الانوار ، ويبدع الازهار ، وهو ضابط الملك بآرائه ، رابط السلك بلآلائه ، ان شاء انشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة مالو دون لكان لاعل الصناعة ، خير بضاعة ، ابن قس عند فصاحته ، وابن قيس في مقام حصافته ، ومن حاتم وعمرو في سماحته ، وحماسته اه

طريقة القاضي الفاضل هي كطريقة العماد الكاتب في الاسجاع

المنمقة المحبرة ولقد استحكمت هذه الطريقة في القاضي حتى صار يكتب فيها كأنها فيه طبع لامسحة عليها من التكلف والتعمل . وهي الطريقة التي نقلها العماد الكاتب الاصفهاني عن الفارسية في الغالب ولم تكن شائعة بالعربية في بلاد الشرق وقد برز فيها صاحب الترجمة حتى فاق المتقدمين . قال ابن خلكان : أخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره ان مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات في الاوراق اذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد وهو مجيد في أكثرها.

وكثيراً ما يقع للفاضل عبارات تكاد تكون من دلائل الاعجاز على بيانه، ومن أسرار البلاغة التي يسمو بها على أقرانه . مثل قوله في صفة قلعة شاهقة ويقال انها قلعة كوكب: وهذه القلعة عقاب في عقاب، ونجم في سحاب، وهامة لها الغمامة ، عمامة ، وانملة اذا خضبها الاصيل كان الهلال لها قلامة.

ولقد نال القاضي الفاضل الحظوة من صلاح الدين يوسف بن أيوب بانشائه حتى انه لم يكن وزير الانشاء عنده بل مدبر أمور مملكته وله من الدالة ما للولد على الوالد أو الوالد على الولد حتى استشاره السلطان يوماً في الحج فلم يسمح له وقال له ان رفع مظلمة عن أهل وادي الزبداني أفضل من الحج الى بيت الله الحرام على ما جاء في كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية . وفي هذا التاريخ من أحواله وانموذجات من إنشائه تدل على ماله من المنزلة السامية في قلب السلطان صلاح الدين والمكانة من تدبير أمور مملكته ودولته .

وكان القاضي يعمل الخيرات ولم تشغله مصالح الدولة عن النظر فيها واقامة معالمها وحبس الاوقاف على وجوهها النافعة واكرام العلماء والادباء

قصاده من أقطار البلاد الاسلامية في عصره. كل هذا وكان في وقته متسع لطالب العلم ومذاكرة أهله وخطب ودهم وقربهم. وناهيك باشغال تقتضيها أمور الدولة على ذاك العهد المحفوف بالمخاوف والفتن.

واستمرت حال القاضي على ما كانت عليه زمن الملك الناصر صلاح الدين عند ولده الملك العزيز وكان يميل اليه في حياة أبيه. ولما توفي العزيز قام ولده الملك المنصور بالملك بتدبير عمه الملك الافضل نور الدين وتوفي أول دخول الملك العادل أبو بكر بن أيوب الى الديار المصرية وقد نال بصناعة الانشاء ما عز نيله على المحدثين والقدماء ولسان حاله ينشد لابن مكنسة الاسكندري وكثيراً ما كان يرددها

واذا السعادة لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطدبها العنقاء فهي حبائل ... واقتد بها الجوزاء فهي عنان